٨

الاميركيون يزحفون من الصحراء الى درنة

انطلق « ويليام ايتون » من الاسكندريـــة في الرابـع من شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٠٤ ، لملاقاة احمد قرامانلي – الذي كان يحرص اشد الحرص على ان يصفـــه دوماً « بالباشا الشرعي لطرابلس » – فابتدأ احدى اغرب المغامرات في تاريخ علاقات الولايات المتحدة بشمالي افريقيا .. كان احمد في قلب مصر حيث تألبت حوله جماعة من بكوات المماليك الثائرين الذين كانوا يخوضون حرباً ضد العثمانيين الممثّلين بوالي السلطان . ان خوف احمد من شقيقه يوسف، باشا طرابلس ، لا حبه للحرب ، هو الذي دفعه الى التغلغل في مناطق بعيدة شمالي النيل . ولقد كانت مشكلة « ايتون » – بل وشغله الشاغل – ان ينتقد احمد (الذي اراده ان يكون حاكماً دمية بين يده) ويجمع جيشاً قوياً من العرب والطرابلسيين المنشقين . وكان نجاح المغامر الاميركي في مهمته وتذليله لأصعب الصعوبات دليلاً على عزيمته وصموده وارادته .

كانت مصر تتخبّط في الفوضى عند وصول « ايتون » . كـــان الانكليز ، الذين احتلوا مصر بعد خروج « نابوليون » ، قد غادروا

البلاد في ربيع عام ١٨٠٣ ، فعاد العثمانيون الى الحكم حكماً اسمياً . وكان نائب الملك آنذاك رجلاً عثمانياً اسمه احمد باشا خورشيد ، ولكن صلاحياته لم تكن تشمل الا مساحة ضئيلة حول الاسكندرية والقاهرة . وكانت زمر متنقلة من الانكشارية الالبانية المتحجرة القلوب تنهب وتسلب وتعيث فساداً في البلاد . وعند اعلى النيل ، كان كثير من البايات المماليك يحاربون جنود خورشيد ويهددون باجتياح عاصمته القاهرة . وهكذا، فقد كان على « ايتون » ان يجد لأحمد مكاناً ما بين هذه التكتلات الداغرة * .

واذا علمنا ان هدف « ايتون » الاول كان انشاء صداقات مع اشخاص مصريين لهم نفوذهم ، ادركنا لماذا اتصل على الفور بالمسؤولين البريطانيين هناك ليقدم لهم رسائل توصية من حاكم « مالطة » . لقد عامل البريطانيون الاميركيين برفق ولين ، وأظهروا لهم لطفاً ملحوظاً ، كما كانوا اصحاب الفضل في تحقيق الاجتماع الذي تم بين « ايتون » ونائب الملك المصري في القاهرة . وتجدر الاشارة الى ان شركة « بريغز اخوان » في الاسكندرية قد مدت الحملة الاميركية بالمال والعتاد . وكان « صموئيل بريغز » ، وهو عضو في تلك الشركة ، قنصلاً بريطانياً في مصر . وعلى نقيض الانكليز ، فقد حارب الفرنسيون « ايتون » في كل يوم فنقشوا في فؤاده كرهاً ابدياً لفرنسا .

ومما يذكر ، ان قنصل فرنسا — وكان رجلاً ايطالياً اسمه « دروفيتي » — اشاع ان الاميركيين هم جواسيس . وبعد ذلك ، اصدر « دروفيتي » هذا اوامر حرّمت قيام اية علاقة او اتصال بين اي فرنسي وبين الاميركيين ، الامر الذي حمل « ايتون » على تحرير خطاب قاسٍ وعاصف وشديد اللهجة الى القنصل من جهة ، وعلى

---

* اي المشاركة في حرب العصابات .

الاحتجاج رسمياً لدى الحكومة الفرنسية من جهة اخرى .

في اول الامر ، انتقل « ايتون » الى القاهرة . وكان الانكليز قد زودوه في الاسكندرية بزورقين للقيام بالرحلة ، كما ارسل المندوب الانكليزي المقيم هناك سكرتيره ليرافق « ايتون » ، وكان يدعى الربان « فينسنتو » وكان يعرف المنطقة حق المعرفة . وفي الزورق الاول ، الذي كان يرفرف عليه العلم الاميركي ، ابحر « ايتون » نفسه ، ومعه الملازم اول الاميركي « بريسلي ن. اوبانون » ، وضابط الصف البحري « جورج مان » ، وضابط الصف « ايلي دانيلسون » (وكان ربيب* « ايتون ») ، والمغامر المدني الانكليزي « ريتشارد فاركوهار » ، والانكشاري سليم ، والترجمان علي ، وستة من الخدم ، جميعهم بكامل اسلحتهم وعدتهم . اما الزورق الثاني ، فكان يرفع العلم البريطاني ، وعليه الربان « فينسنتو » ، والدكتور « فرانسيسكو مندريسي » وكان احد اصدقاء « ايتون » منذ ايام اقامته في تونس ، وعدد من الملاحين يكفي للعمل وراء مدفعين دوّارين . وقد صممت المجموعة على الصمود في وجه الداغرين ، المشاركين في حرب العصابات ، وعدم الوقوع في ايديهم . اما الدكتور « مندريسي » فكان ضربة حظ موفقة بالنسبة للمبحرين ، اذ سرعان ما اصبح طبيب نائب الملك ، وهو الآن رجل له نفوذه وتأثيره .

لقد كان النجاح حليف البعثة في القاهرة . فاستقبل نائب الملك زائريه بحفاوة مهيبة . وتكلف « ايتون » ان يظهر بمظهر مرضٍ ، فتملّق وداهن مضيفه .. وانطلاقاً من ان الاعتراف بالحقيقة افضل سياسة ، شرح « ايتون » رغبته بعودة احمد قرامانلي الى الاسكندرية كيما يقود الاثنان معاً حملة على يوسف قرامانلي ، الذي نعته « ايتون » بأنه حاكم

* اي ابن زوجته .

مغتصب وطاغية . ومن جملة ما بعث به الى وزير البحرية ما يلي :

« ولقد بيّنت له ، بطريقة تروقه ، اذ فيها من الاطراء ما ضرب على وتره الحساس ، الفرق بين حكام الدول المتبربرة وعادات المناطق الاخرى التابعة للدولة العثمانية » .

فابتهج نائب الملك لهذه المجاملة ، ولهذا التقدير لشهامته ، ولهذا الاجلال تعبيراً عن الاعجاب بشخصه – تلك الخصال التي لم يلاحظها الا القليل من الرجال من قبل – وهز رأسه علامةً على الرضى .

وأضاف « ايتون » :

« ولكي أغيّر مجرى الحديث قليلاً ، تطرقت الى موضوع الصلة والتقارب في المبدأ ما بين الاسلام والدين الاميركي » (يقصد المسيحية).

وبتلك الطريقة ، وبعد ان أقنع « ايتون » خورشيد أنه هو والشعب الاميركي ليسوا في الواقع سوى أشقاء وأخوة ، نال « ايتون » وعداً بالمساعدة والمعونة . بيد ان خورشيد صرح بأنه اذا ما انضم احمد الى الثوار ، فان حماسته للطرابلسيين سوف تخمد ومحبته لهم سوف تتضاءل .

« فأجبته ان موضع الألم والأسى قد لا يكون بالضرورة موضع الاستياء والامتعاض بالنسبة لعقل نيّر ، وان الله وحده يصفح عن عدو تائب بدلاً من معاقبته » .

إلا ان خورشيد أدرك ، بحكمة ، ان خروج احمد من مصر سوف يريحه من عدو واحد ، واعتزم على ان يبعث اليه رسولاً يحمل معه كتاب امان وعفو .

هذا ، وقد ارسل « ايتون » رسولاً يحمل معه كتاب تشجيع . وفي هذا الكتاب المرسَل قال « ايتون » لأحمد مرائياً :

«كتب الله لك ان تواجه المشاكل ... ونحن نعتقد أنه كتب لك ايضاً ان مشكلاتك ستنتهي الآن » .

وخشية ان يخاف احمد من ان ينتقم خورشيد من عدو سابق ، فقد

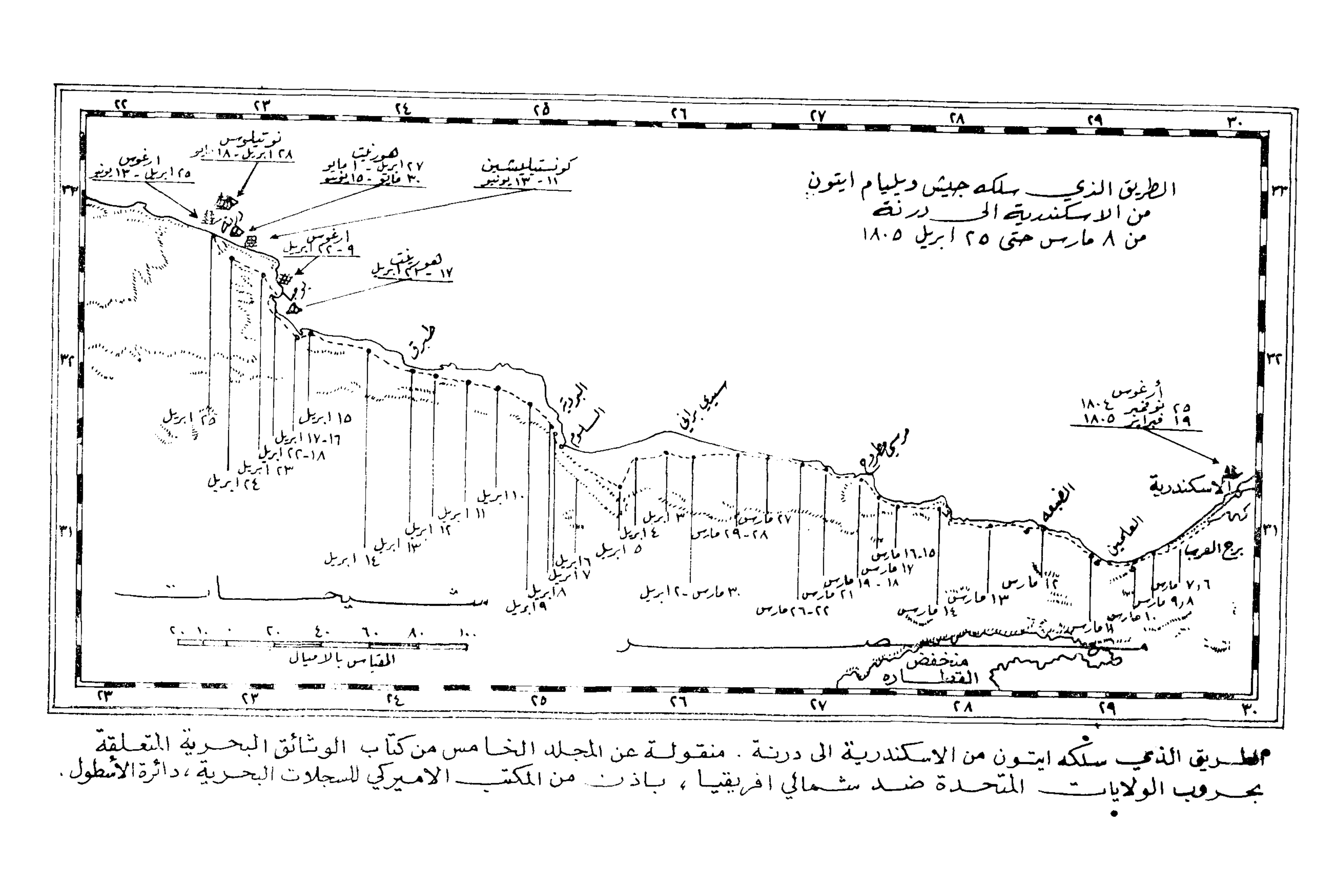
أكد له « ايتون » بأن خورشيد :

« الذي يتميز بعقل واسع جدير بأمير ، وبقلب طيب رقيق شبيه بالسماء ، قد نسي الاوضاع والاحداث التي وقعت ولم يتذكرك إلا كما كنت ، ولذا فهو يتيح لجلالتك ان تعرج على اي ناحية من انحاء بلاده ، من غير ان يتعرض لك احد ، وان تنزل معي في أي مرفأ تشاء » .

وفي ذلك الوقت ، كان « ايتون » يأمل بأن تتخذ الحملة طريق البحر لتصل الى ضواحي درنة او بنغازي .

بيد انه ، في هاتيك اللحظات ، كان عليه ان يستقر في القاهرة وينتظر كلمة من الباشا الشارد . واخيراً ، وفي الثامن من شهر كانون الثاني (يناير) ، تلقى رسالة من احمد قرامانلي يطلب منه فيها ان يقابله في مكان ما من الصحراء ولكن خططهم ما لبثت ان تغيرت حين طلب احمد الرحيل الى الاسكندرية ومعه حوالى ثلاثين رجلاً من انصاره . ومن ثم ، تم الاجتماع بين الرجلين — في آخر الامر — في دمنهور ، وذلك في ٥ شباط (فبراير)... وفي اليوم التالي استعدا للانطلاق الى الاسكندرية.

واتفق ان اوقفهما ، مسؤول تركي في مكان يقع بالقرب من تلك المدينـــة ، وذلك بتحريض من « دروفيتي » — القنصل الفرنسي — ، ومنعهما من متابعة الرحلة . ان ذلك الموقف لم يكن صفعة موجهة الى كبريائهما وحسب ، وانما كان محرجاً ومضايقاً ، اذ ان « ايتون » كان قد سبق له ان رسم مخططاته لأن يجند جماعة من الجنود المسيحيين في الاسكندرية . ووصلت الى « ايتون » معلومات ، ارسل بها الملازم اول « اوبانون » ، تفيد بأن الأميرال التركي والمحافظ مصممان على ابقاء احمد خارج حدود الاسكندرية . ونصح « اوبانون » صديقه « ايتون » بأن يحصل على كتاب من نائب الملك « كاف لارضاء جماعة من القادة الجهلة الذين لا يتميزون بصالحة لا قوتهم ، والذين يصرون بعناد على عدم



الطريق الذي سلكه ايتون من الاسكندرية الى درنة. منقولة عن المجلد الخامس من كتاب الوثائق البحرية المتعلقة بحروب الولايات المتحدة ضد شمالي افريقيا، باذن من المكتب الاميركي للسجلات البحرية، دائرة الأسطول.

السماح لأحمد بدخول الاسكندرية بدون اوامر اضافية جديدة » .

ولقد فضّل أحمد قرامانلي ألا يتورّط مع العثمانيين بصعوبات عدة ، فغيَّر خططه ثانيةً وابتعد عن المدينــة ، ليخيّم في مكان يعرف باسم « برج العرب » ، يقع على مسافة ثلاثين ميلاً غربي ميناء الاسكندرية القديم ، وضرب موعداً لأنصاره الذين كانوا سيلتحقون بجيشه وينضمون الى زمرته . وفي غضون ذلك ، ذهب « ايتون » الى المدينــة ليجتمع بالملازم اول « اوبانون » ، والملازم اول « اسحاق هـَل » رُبّان السفينة « ارغوس » . ولقد قرر أحمد نهائياً ألا يتقدَّم الى درنة عن طريق البحر ، وإنما ان يزحف عبر الصحراء الليبية ، لأنه كان يأمل ان ينضم إليه ، في الطريق ، عدد كبيرٌ من العرب المتشوقين للحرب والمتعطشين للسلب والنهب وقت احتدام المعركة .

لم يؤخر غياب أحمد عن الاسكندرية كلاً من « ايتون » و « اوبانون» عن تعزيز جندهما في الخفاء ، علماً بأنهما كانا متيقظَين لئلا يُشتَمَّ منهما أنهما يقومان بأعمال التسليح والتجنيد . وفي رسالة بعث بها « ايتون » الى وزير البحرية في ١٣ شباط (فبراير)، أشار الى النجاح الذي حققه في تطويع الجنود المرتزقة المغامرين * ، فكتب يقول :

« سوف اجتمع به (يعني احمد) ومعي كتيبة من المدينة يوم الأحد المقبل ، ونتوجه سويةً على رأس خمسمائة رجل إلى « بومبا » ** حيث سنعسكر . وفي تلك الأثناء ، يكون الربان « هــل » في القاعدة (اي « سيراكوزة ») ليزودنا بالمؤن والمعدات لتوطيد اقامتنا وترسيخها في درنة وبنغازي . واذا ما استولينا على تلك الأقاليم والمقاطعات ، فانها سوف تفلت من قبضة العدو لتنقلب مصدراً لذخائرنا ومركزاً لتموينا ، كما

---

* ان الجندي المرتزق او المغامر هو ذلك الجندي الذي يلتحق بالجيش حيثما لاح له بارق كسب او مغامرة او متعة . (المعرب)

** انظر الخريطة .

أنها ستتيح لنا مجال الاتصال بداخل البلاد . ولقد طلبت من قائد الاسطول – قصد تحقيق غايتنا هذه -- مئة قطعة سلاح ، مع خرطوشاتها ، ومدفعي ميدان (محمولين على عربة) ، مع قاطرتيهما وذخائرهما ، وكتيبة من الاسطول لا يقل عدد رماتها البحريين عن المئة ، اذا ما كان الأمر ضروريا حتى نقوم بهجوم مفاجىء مباغت . »

وقدر « ايتون » ان مصاريف الحملة سوف تكون معقولة جداً ، كما أنه ضمن ان يعوض على الولايات المتحدة ما تكون قد دفعته ، عندما يتربع الباشا أحمد قرامانلي على كرسي العرش ، شأنه في ذلك شأن كل رجل نيو إنغلندي مقتصد . ووعده أحمد بأن يتحمل النفقات التي تدفعها الولايات المتحدة في الحرب . وكان أحمد سيدفع تلك النفقات من اموال الجزية المفروضة على السويديين ، والدانماركيين ، والهولنديين . وبالمناسبة فقد كتب « ايتون » الى نظارة البحرية يقول ما يلي :

« اني اقدر جميع المصاريف والنفقات النقدية التي سنتحملها في تلك الحملة ، بما في ذلك الاموال التي انفقت في مصر ، بحوالى عشرين الف دولار . وهذا ، مع الاشارة الى انه سوف تضطرنا الحاجة إلى تكبد نفقات ومدفوعات وبضائع أخرى في سبيل تنفيذ خطتنا حتى الهدف الأخير . ولكن ، لتطمئن الولايات المتحدة !! فاني سوف أعوض لها عن خسارتها ، لا سيما بعد ان توصلت الى عقد اتفاقية مع أحمد باشا تنص على ان أتعهد بنفسي جمع جزية كل من السويد ، والدانمارك ، وجمهورية باتافيا ؛ وسوف أحول هذه الاتفاقية الى صك اقدمه الى الربان « هل » اذا ما سمح لي الوقت بذلك ؛ وإلا فسوف أتدبر الأمر في أول مناسبة وأقرب فرصة » .

ان الاتفاقية التي أتى « ايتون » على ذكرها ما كانت سوى وثيقة جليلة مهيبة تضمن استمرار السلام الدائم مع الولايات المتحدة ، وتفرض على أحمد ان يتقيد بالمعاهدات المعقودة مع الدانمارك ، والسويد ، والجمهورية

الهولندية . وعلاوة على ذلك ، فبعد النظر بعين الاعتبار الى الخدمات التي قوبل بها الاسطول الاميركي المتمركز في « سيراكوزة » ، واعترافاً وتقديراً منه لذلك ، أضاف « ايتون » فقرةً الى الاتفاقية تضمن لمملكة الصقليتين معاملة ممتازة وكأنها ولاية من الولايات المتحدة الأميركية نفسها .

ولقد وافق أحمد باشا قرامانلي ، في حال قيام حروب بين الفريقين في المستقبل ، (وهذا ما يبعث على السخر ، بالنظر الى ضمان « السلام الدائم » الذي نوّهنا به) على ان يعامل أسرى كـلا الطرفين معاملة أسرى حرب لا معاملة رقيق، وان « تبقى القنصلية الاميركية دوماً ملتجأ آمناً مقدساً لجميع من يرغب في الاحتماء تحت ظلهـا ، ما خلا الذين يفعلون ذلك تستراً على جريمتي الخيانة والقتل » .

وأخيراً ، و « بمقتضى هـذه الاتفاقية ، فان « ويليام ايتون » – مواطن اميركي من الولايات المتحدة الاميركية يقيم الآن في مصر – سوف ينصّب جنرالاً وقائداً عاماً مسؤولاً عن الجيوش والقوى البرية التي تدعى لمحاربة العدو المشترك » .

وعلى اساس هذا « التنصيب » أو « التفويض » او « التعيين » – سمّه ما شئت – حمل « ايتون » لقب جنرال ، واحتفظ بتلك الرتبة طيلة الأيام المتبقية من حياته . ومن الأهمية بمكان عظيم ، ان نذكر ان ثمة مادة سرية من الاتفاقية يأخذ فيها أحمد عهداً على نفسه بتسليم شقيقه يوسف (الباشا المغتصب) الى الاميركيين ، وبتسليمهم « بيتر لا يل » المعروف باسم « الريس مراد » (الاميرال الطرابلسي) معه أيضاً .

وُقعت الاتفاقية في الثالث والعشرين من شهر شباط (فبراير) ، أي في الوقت الذي كانت فيه استعدادات الرحيل عـلى طريق الحملة منتهية تقريباً . ولكن ترتب بعض التأخـير والاحراج عن نذالة « ريتشارد فاركوهار » الذي اختلس مبلغ ١,٣٥٠ دولاراً من « ايتون » . ثم ، في ٢ آذار (مارس) ، عندما انتهت جميع الاستعدادات وكان كل شيء

جاهزاً ، ألقى الجنود العثمانيون القبض على جماعة من أنصار أحمد حين كانوا في طريقهم لمغادرة الاسكندرية « ومعهم العديد من أمتعة الجيش » . فذعر الباشا أحمد قرامانلي لسماعه هذا النبأ ، الى درجة انه كان على وشك الهرب في الصحراء . وعندما تدخّل الملازم اول « اوبانون » — كما سيحدث فيما بعد اكثر من مرة — ، وأقنعه بأن حياته ليست في خطر . إن المراقب المالي العثماني المسؤول عن الضرائب قد أمر الجند بالقاء القبض على أنصار أحمد لأننا — على حد قول « ايتون » — : « لم نشتره بعد » . وبعد مساومة استغرقت يوماً كاملا ، أطلق العثمانيون سراح الأسرى ومعهم أمتعتهم .

وفي الثالث من شهر آذار (مارس) ، قاد « ايتون » جماعة من السفاحين الذين كان قد سلحهم ، سراً لا علانية ، في شوارع المدينة الخلفية — أقول انه قادهم مغادرين الاسكندرية . وقد خيموا باطمئنان خارج المدينة ووضعوا جردة بعددهم وببضائعهم واعتدتهم . وبعد ايام ثلاثة انضموا الى جماعة أحمد قرامانلي المتنافرة والمؤلفة من عناصر مختلفة في برج العرب ، حيث أخذوا يشكلون من انفسهم وحدة عسكرية محاربة — اذا ما جاز لنا استعمال ذلك التعبير بدلاً من كلمة « جيش » كذلك الذي اقترح « ايتون » ان يهاجم به طرابلس .

ولقد ابتاع « ايتون » من بدوي عربي ، اسمه « الشيخ الطيب » ، قافلة من الجمال قوامها ١٩٠ جملا ، بأحد عشر دولاراً الجمل الواحد . وكان يحق له ، وفق تلك الصفقة وبعد ان دفع الثمن ، ان يستعمل القافلة طوال الرحلة الى درنة ، ولكن الشيخ الطيب اعتقد اشياء أخرى ، وراح يطالب بالمزيد من المال . ونقع في يوميات « ايتون » على العبارة المقتضبة التالية :

« هدأته وأشبعت رغبته بالوعود » .

هكذا ابتدأت المشكلات بينه وبين الشيخ الطيب .

كان على « ايتون » ان يختار ضابطاً مساعداً له ورئيساً للمهندسين ، فوقع اختياره في القاهرة على وغـد ساذج – بكل ما تحمل الكلمة من معنى – كان يتنكر في تلك الهنيهة بشخصية خبير عسكري تحت اسم « يوجين لايتنسدورفر » . وكان ذاك الجندي المرتزق المولود في « التيرول الايطالي » قد خدَم على التوالي عند النمساويين ، فالفرنسيين ، فالانكليز فالعثمانيين ، مزدرياً الاخلاص ومترفعاً عنه . والطريف انه انقلب مرة الى راهب كبّوشيّ . ومن ثم ، قام برحلة الى مكة كدرويش ورع ، غير مهتم بالعقيدة الارثوذكسية . ولما عثر عليه « ايتون » ، كان يعيش حياة مُعدمة مُفلسة مع العثمانيين في مصر ، وكان ينتظر مغامرة مُربحة أخرى .

كان الجنود الذين تطوعوا في الاسكندرية ، كما دوّن « ايتون » في يومياته ، قد تشكلوا على النحو الآتي :

« كان هناك جماعة من المدفعيين يعدّون خمسة وعشرين ، يرئسهم « سليم كومب » والملازمان الأولان «كونان» و « روكو » ... وكان هناك سرية تتألف من ٣٨ يونانياً وعلى رأسهم الربان « لوكو يولوفيكس» والملازم اول « كونستونتين » . أما حاشية الباشا ، فكانت تتألف من حوالى تسعين رجلا ، بما فيهم اولئك الذين قدموا من الفيوم والذين انضموا اليه مُذ وصوله الى الاسكندرية . ان هؤلاء جميعاً ، بالاضافة الى مجموعة من الفرسان الخاضعين لأمر الشيخ الطيب والشيخ محمد سوية ، (وتضم تلك المجموعة المشاة والجمالين) انهم كانوا يؤلفون قرابة الاربعمائة شخص . هذا ، وكانت « قافلتنا تتألف من مئة وسبعة جمال وبعض الحمير » .

وأخذت المئة وتسعون جملاً من جمال الشيخ الطيب تتضاءل على نحو مرعب مُنذرٍ بالخطر . وبالاضافة الى اليونانيين ، كان بين « المسيحيين» بعض المواطنين البريطانيين ، واثنين او ثلاثة من الألمان ، والايطاليين ،

والاسبانيين ، واجناس مختلفة من المشرقيين .

كان الاميركيون الوحيدون في ذاك الجيش – وقد ساروا رافعين راية الولايات المتحدة – ، هم الرجال التالية اسماؤهم :

« ويليام ايتون » نفسه ، والملازم « اوبانون » من الاسطول الاميركي ، وضابط الصف « باسكال باولي بيك » من بحارة الولايات المتحدة ، وأحد رقباء الاسطول ، وستة من الملاحين ... – مما يجعل عددهم الاجمالي عشرة رجال ، لكنهم رجال همة وجَلَد .

ولم يسبق في تاريخ الولايات المتحدة العسكري ان حقق عشرة رجال – وحتى من رجال البحرية – ما حققه اولئك العشرة من مُنجزات ببراعتهم وشجاعتهم ... أما فيما لو حصل « ايتون » على الرماة البحريين * المائة الذين طلبهم من القائد « بارون » ، فلكان تمكن فعلاً من ان يزحف من البوابة الخلفية لمدينة طرابلس .

وبالمناسبة ، فان الطريق الذي اختاره « ايتون » كان الطريق ذاته (تقريباً) الذي سار عليه ، في تاريخ لاحق ، الجنرال « مونتغمري » للتلاحم مع « رومل » الألماني . ومع ان الشروحات واسماء المواقع التي ذكرها « ايتون » في يومياته تدع لنا مجالاً واسعاً للتساؤل والشك في خط السير الصحيح والحقيقي ، فيبدو ان « ايتون » قد ظلّ محاذياً للخط الساحلي في النصف الاول من رحلته ، في حين انه كان يسلك بعض القادوميات والطرق المختصرة عبر الرؤوس ** الهامة . فمن « بير النفطة» ، شرقي « سيدي براني » ، اختار طريقاً برية مختصرة تؤدي الى « السلوم » ، ومن هناك عاد وتوغّل في البرّ ماراً بجنوبي طبرق ،

---

* ان الرامي البحري هو جندي من البحرية الاميركية مدرب على الخدمة في البحر والبر .. (المعرب)

** جمع رأس وهو لسان من الارض داخل في البحر ..

من غير ان يدنو من الساحل ثانيةً ، الى ان وصل الى الطرف الشرقي من خليج بومبا...ومن « بورت مينيلوس » الواقع على الخليج المذكور سلك طريقاً مختصرة برّية اخرى قادته الى درنة من مدخلها الجنوبي الشرقي.

• إن المصاعب العديدة في تلك الطريق لا تضاهيها إلا وعورتها ، الأمر الذي يلاحظه المسافر عليها حتى اليوم حيث تتيح له التقنية الحديثة استعمال آليات وتجهيزات ومحرّكات ... لقد كانت الرحلة بالنسبة لجيش « ايتون» — وكان بعض افراده ، بالمناسبة ، من المشـــاة ، والبعض الآخر من الفرسان ، وما تبقى منهم كانوا يمتطون الجمال والحمير — ، كانت كفاحاً مستمراً ضد عوامل الطبيعة . وقد زاد من صعوبة الرحلة خوف أنصار أحمد الجبناء وتشاؤمهم ... ان احمد قرامانلي نفسه كان يبدو جباناً كالأرنب ؛ زِدْ عـــلى ذلك كله ، أن عرب الصحراء ، الذين قاموا بدور الخدمة والتموين ، كانوا يخلقون المشكلات عند كل محطة توقف.

•

وأخيراً ، تحرّكت القافلة في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الثامن من شهر آذار (مارس) ، وسارت مسافة خمسة عشر ميـــلاً من برج العرب الى جُرُف عـــالٍ فوق البحر ، حيث خيّم الجميع مؤقتاً في العراء .

وفي صباح اليوم التالي ، جلس الجمّالون وأصحاب الخيول أمام معسكراتهم كئيبين ، ومُتجهّمي الوجوه ، ومتحركين ببطء ، بدلاً من ربط أمتعتهم والانطلاق باكراً من جديد ... وقبـــل ان يحرّكوا قدماً واحدةً ، فانهم راحوا يطالبون بدفعة مالية مُقَدَّماً . ولمّا رفض «ايتون» الاذعان لطلباتهم ، ثاروا وهدّدوا باستعمال السلاح وسفك الدم .

وكتب « ايتون » :

« لقد أوهمهم الشيخ الطيّب بأنهم اذا ما قاموا بواجباتهم قبـــل ان

يقبضوا أجورهم ، فان الأميركيين سيصبحون حرّيين بسلبهم اموالهم بالاحتيال . وبدا الباشا قانطاً جزعاً ، ومتردّداً متحيراً ... المال ... المزيد من المال ، كان الباعث الوحيد الذي يستطيع ان يحرّك المخيّم وينفخ فيه الحياة » .

وكان العرب يرفضون ان يتزحزحوا طوال صدر النهار (من الصباح إلى الظهيرة) . عندها ، حشد «ايتون» الرجال المسيحيين ، وأخذ يتراجع نحو الاسكندرية ، مهدداً بالتخلي عن أحمد قرامانلي وعصبته... حينئذ – وحينئذ فقط – أذعن الجمّالون وتابعوا الرحلة . فقطعوا مسافة اثني عشر ميلاً فقط قبل ان يهبط الظلام .

وكانت الايام الخمسة التالية مفيدة ومثمرة ، اذ ان القافلة اخذت تقطع معدّل خمسة وعشرين ميلاً تقريباً في اليوم ، ولكن هذا لم يمنع وقوع الحوادث وبروز العوائق . ففي الثالث عشر من آذار (مارس) ، على سبيل المثال ، وصل مبعوث من درنة يحمل أنباء سارة – ثبت انها ملفقة (فيما بعد) – تفيد ان الايالة تتسلح استعداداً للثورة على الوالي من جهة ، واستعداداً لاستقبال أحمد استقبال الفاتحين من جهة اخرى... فما لبث بعض أنصار أحمد ان امتطوا خيولهم واندفعوا يطلقون رصاصات تلعلع في الفضاء : احتفالاً بالنبأ السار . فذعر العرب المنتشرين في غير اتساق في مؤخرة الجيش لذلك الاهتياج الفوضوي ، وظنوا ان رجال القبائل الصحراوية الغرباء يهاجمون القافلة ، فقرروا هم أنفسهم أن يذبحوا المسيحيين ويفرّوا بأمتعة الجيش . ولكن نصيحة أحد الشيوخ العقلاء حالت دون انهاء الحملة على تلك الصورة وقبل الأوان . وبعد ذلك ، تيقظ الرماة البحريون وزملاؤهم النصارى وباتوا أشد حذراً ، لكنهم لم يقووا على منع اللصوص ، بعد يومين ، من سرقة الاسلحة ، والاعتدة ، وجميع مؤونتهم من الجبنة – الأمر الذي كان خسارة فادحة بالنسبة للرماة البحريين الذين لم يستسيغوا أكل التمر أو شرب حليب الجمال.

بدأ المطر الشديد يهطل الآن مصحوباً ببرد قارس فغدت الطريق أمام القافلة وحلاً كثيفاً ... وانزلقت الجمال وزلّت أقدامها في الممرات الوعرة غير الآهلة ... وخوّض المشاة في الوحل على نحوٍ بائس لا يُحسدون عليه . وفي ١٦ آذار (مارس) ، كان الطقس قد بلغ حالة من القساوة اضطر معها القائد لاصدار أمره بالوقوف . كانت الرياح ، وكان الرعـد ، وكانت الامطار المتقطعة ، كلّها ضدهم . وما ان نصبوا خيامهم حتّى طاف المعسكر بالمياه التي غمرته غمراً ، فاضطر كل امرىء الى ان يتسلق الى بعض التلال والهضاب المرتفعة حتّى لا يجرفه وابـلُ المطر الغزير المفاجىء .

وبالرغم من ان اليوم الثاني كان ماطراً أيضاً ، فقد اعطى «ايتون» اشارة استئناف المسير. كان وحل الصحراء أرحم من لزوم معسكر مُشبع بالماء من غير الاتيان بحركة ما ، حيث يسود نتن الجمال الكريهة الرائحة من جهة ، وحيث تدوي اصوات العرب المتخاصمين وتنتشر جلبتهم من جهة ثانية . . . ومرة أخرى ، رفض الجمّالون ان يتزحزحوا من مكانهم ما لم يُدفع لهم المـال ، ولكن « ايتون » — على حـد قوله — : « استرضاهم بالوعود » ، فقطعوا مسافة اثني عشر ميلاً قبل ان يخيموا في وهـد او مسيل (واد صغير ضيق شديد الانحدار) كثٍّ وكثير الاغصان المقطوعة ، ليلاً .

وفي مساء اليوم الثامن عشر من آذار (مارس)، وصلت القافلة الى القرية الساحلية مرسى مطروح (التي نعثر عليها باسم « ماسروسكاه » في اليوميات) . وهناك قُدمت لهم الابقـار ، والخراف ، والامعاز ، والطيور ، والدجاج ، والزبـدة ، والتمور ، والحليب ، ولكن بثمن عال جداً . والآن ، أجبر الجمالون والشيوخ المسؤولون عن القافلة القائد « ايتون » على التسليم بالأمر الواقع والخضوع لشروطهم . فقـد أدرك القائد ، بمزيد من الدهش ، ان أحمد كان قد وعـد القادة العرب بألا

يتابعوا سيرهم أبعد من مرسى مطروح .

ان التفصيلات الدقيقة لاتفاق احمد باشا قرامانلي مع القادة ما زالت ضبابية ، على انه من الواضح الجلي ان أحمد قد شوّش المشروع وعكوه و « لخبطه » .

وتعيّن على « ايتون » عندئذ أن يجد النقود الكافية لارضاء كل جمّال على حدة ، رجاء الحؤول دون تراجع القافلة وعودتها الى حيث كانت . وهكذا فقد استدان (بالتملق) مبلغ مئة وأربعين دولاراً من المسيحيين المرافقين له ، وأخرج كل ما في جيبه من نقود — حتى آخر فلس يستطيع انفاقه . وبكلمة أوضح ، تمكن من جمع ٦٧٣ دولاراً أعطاها لأحمد كيما يوزعها على العرب المضربين ، شريطة ان يتابعوا سيرهم يومين آخرين حتى يصلوا الى نقطة ما يستطيع فيها القائد استئجار قافلة جديدة من بعض القبائل العربية .

لقد تحوّل كنز « ايتون » الى ثلاثة سكاوين* فينيسية** .

وفي اليوم التالي ، انتقم أحمد من القافلة ، وبدلاً من ان تتابع القافلة سيرها توجه الجميع عائدين الى مصر ، ما خلا أربعين منهم ... ليس هذا فقط ، بل لقد اكتشف « ايتون » ان احمد كان قد اتفق مع الشيوخ على تبديد الوقت وقتل الساعات في مرسى مطروح ، حتى يعلموا ان السفن الحربية الاميركية أصبحت في انتظارهم في بومبا . وكان أحمد خائفاً وجلاً مرتعد الفرائص اكثر من أي وقت مضى ، ولا سيما بعد ان سمع نبأً نقله حاج مراكشي ، كان في طريقه الى مكة ، مفاده ان يوسف يعمل على ارسال ثمانمائة من الخيالة والعديد من جنود المشاة الى درنة .

---

* نقد ذهبي ايطالي قديم كان متداولا وقتئذ . (المعرب)

** نسبة الى البندقية .

واذا ما كان ذلك صحيحاً – على حد قول « ايتون » – ، فانه لمن باب أولى الأسراع في الحملة قبل ان تصل التعزيزات العسكرية الى درنـة . ولكن أحمد ، شخصياً ، لم يستطع ان يتحمل مجرد التفكير بمحاربة عدو على ذلك الجانب من القوة . وبالنتيجة ، فانه قبع مع الشيوخ في خيامهم يتناقشون الى ما لا نهاية ، في حين تبعثّرت القافلة وتفسّخت .

كان الوضع صعباً ودقيقاً، وكان « ايتون » يائساً وقانطاً ... ولكن، خطرت له فكرة بينما كان يبحث عن حل يُجبر الجميع على متابعة الحملة بأي ثمن كان ... فقد أمر رجاله المسيحيين باخفاء المؤن وحمايتها، وخيّر أحمد والعرب بين استئناف الرحلة وبين الموت جوعـاً ... لن يعطيهم ذرة طعام حتى يُغيروا نواياهـم . ونجحت الفكرة ! ففي اليوم الثاني –٢١ آذار (مارس) – عاد خمسون من الجمال ، وقطع الجيش مسافة ثلاثة عشر ميلاً باتجاه درنة .

وما ان بزغ فجر اليوم التالي حتى وصلوا الى سهل منبسط عريض قرب البحر . وهناك ، وجدوا معسكراً عربياً كبيراً يضم قرابة الثلاثة آلاف او الأربعة آلاف نسمة ، علاوة على قطعان عظيمة من الجمال ، والخيول ، والخراف والامعاز . وعلى الرغم من ان رجال القبائل كانوا ودودين ، مُحبين ، نزّاعين الى التأييد والمساعدة ، وبالرغم من انهم عرضوا على القافلة ان يبيعوها اللحم الطازج وسواه من المواد الغذائية ، فاننا نرى « ايتون » يكتب بحزن :

« ان الشحّ الذي كنا نعانيه على الصعيد المالي النقدي لم يسمح لنـا إلا بمبادلة أرُزنا بما كان لديهم من غلال ومحاصيل . »

كانوا قد سئموا – والحق يُقال – من وقعة الخبز القاسي والارز، تلك الوقعة الجافّة الروتينية . فلو كان لديهم كمية اكبر من الأرز ، لكانوا ربحوا الكثير في عمليات المقايضة ، اذ ان العرب اظهروا شهيـة

كبيرة للأرز الذي استساغوه كثيراً ، حتى ان احدى النساء ، كما كتب « ايتون » :

«عرضت ابنتها على ترجماني مقابل كيس من ذاك النوع من الحبوب، وقد وافقت الابنة على ذلك . كانت فتاة متناسبة التقاطيع والثنيات، سمراء رقيقة لفعتها أشعة الشمس بسياطها ، في الثالثة او الرابعة عشرة تقريباً من عمرها ، لها عينان واسعتان معبرتان ، مائلتان الى السواد ، وحاجبان مقوسان ، وأسنان مثالية رائعة ، لا نظير لها ، وشفتان لهما قدرة على ابهاج الحواس ، لا بل خُلقتا لاثارة الشهوانية الحسية ... كانت عملية المقايضة على وشك ان تتم شرط موافقتي . ولكن تعقلي وتدبري منعاني من ذلك . »

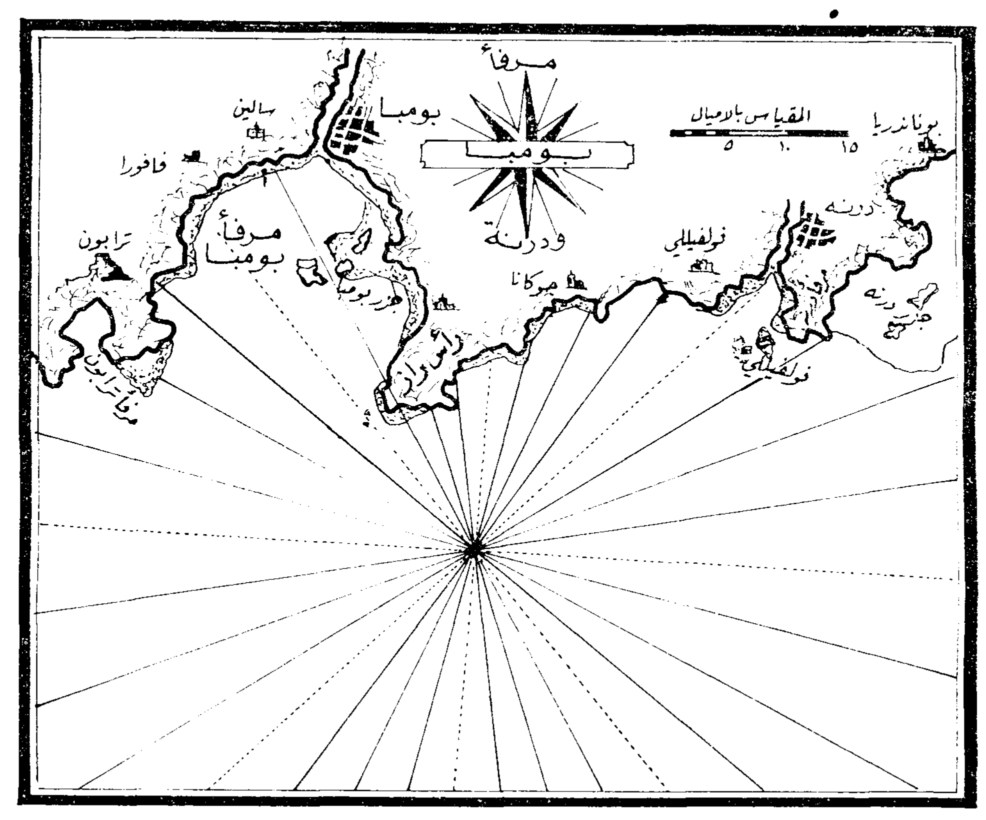
وهكذا، ففي الصراع الذي دار ما بين ضمير ذاك الرجل النيو إنغلندي وبين رغبته في المقايضة ، انتصر الضمير !

ثمة شيء مُغر آخر كان على القائد ان يتجنبه مرغماً لعدم وجود المال الكافي . وتفصيل ذلك ان ثمانين محارباً (مع خيولهم) عرضوا خدماتهم على احمد قرامانلي مقابل مبلغ ما . ولكن لما لم يكن في حوزة أحمد او « ايتون » أي مال على الاطلاق ، فقد اضطرا الى اضاعة فرصة الاستفادة من تلك القوة الجديدة . ونجد في اليوميات ، في هذا الصدد ، العبارة التالية :

« وجدنا ان النقود هي نَهَمُ العرب والاتراك الوحيد » .

غير ان « ايتون » افلح في استئجار تسعين جملاً لنقل بضائعه الى بومبا . ذلك انه وعد اصحاب الجمال بالدفع عند الوصول، عندما يستكمل حوائجه ويسد نقص أمواله من المراكب البحرية هناك .

وفي خلال الاسبوع التالي ، أعاقت المنازعات مع الشيوخ وزعماء القبائل ، وبخاصة الشيخ لطيب ، التقدم ، كما أنذرت أحياناً بالقضاء



خريطة بومبا ودرنة . من منشورات وليام هيتزر في لندن ، سنة ١٨٠٢ . لهذه النسخة موجودة في مكتبة هانتنغتون .

على المشروع من أساسه ... فهناك ، وحيداً في الصحراء ، ليس معه الا مجرد عدد من المسيحيين يُعدون على الأصابع ، وقف « ايتون » مُصراً على رأيه ، متحدياً الشيوخ ان يفعلوا أسوأ ما يقدرون على فعله وموحداً الحملة على نحو متماسك .

كان احمد مشكلة بحد ذاته أكثر منه مساعداً ، اذ ان جبنه قد بلغ درجة أصبح يقع هو نفسه معها ضحية اليأس والعذاب ويفقد كل عزم له لمتابعة السير ، وذلك كلما كان يسمع ما يشير الى المقاومة الشديدة التي تؤمنها قوات يوسف في درنة . فقد ذُعر ذُعراً لا يوصف عندما سمع رسولاً يقول في ٢٦ آذار (مارس) ، ان ثمة خمسمائة خيال هم في طريقهم للدفاع عن درنة . استمع الى اليوميات تقص عليك ما حدث :

«بدا ان الباشا متردد في التقدم خطوة أخرى... لقد هرب الجمالون بالقافلة،وأراني اظن ان ثمة تفاهماً بين أنصار الباشا من جهة وبين عرب « بهاري » من جهة أخرى ، حول العودة الى الفيوم . فما كان مني الا ان منعت عنهم مؤونتهم (او جرايتهم ، كما يقول) حتى تعود القافلة ، وحتى نستأنف السير من جديد الى غايتنا ... ثم عقدت اجتماعاً. وسيطر القنوط على انفعالات كل محيا » .

وتمرّد الشيخ الطيب من جديد ، ورفض ان يأتي بحركة قبل ان يتأكد من ان السفن الاميركية صارت بانتظارهم في بومبا . فثارت ثائرة « ايتون » ، واجتاحه غضب لا يعرف الحدود ولا الضبط ، فوصف الشيخ الطيب بالوغد الخائن ، واعلن ما يلي :

« إني لنادم على اني قد تعرفت اليك . ولسوف أغتبط كثيراً اذا ما نفّذت تهديدك وحققت وعيدك ، شرط الا تتدخل في نوايا القادة والشيوخ الآخرين . »

وكتب « ايتون » يصف تلك الحادثة :

« فترك الشيخ المكان وغادر المعسكر غاضباً ، وهو يقسم بكل قوة دينه بألا يعود إلينا قط . وكان بمكنة الباشا ان يوفد ضابطاً من قبلـه لتهدئة الجو واعادة الشيخ لينا . ولكني رفضت وعارضت . فرحل الشيخ ومعه نفر قليل من قبيلته .

وفي اليوم التالي لتلك الحـادثة ، حرّض الشيخ الطيب العرب ، الذين كانت قد استأجرتهم القافلة في المعسكر الجديد ، حرّضهم عـلى العصيان المسلح ، واقنع نصفهم تقريباً بالعودة معه الى مصر ... ومـرة ثانية ، رفض القائد الاميركي الاقتراح الذي تقدم بـه احمد لارسال ضابط يرجو الزعيم العربي ان يعود . ولكنه أرسل ، بدلاً من ذلك ، كلمة يقول فيها انه يرحب باتاحة الفرصة له كي يعاقب الوغد بالرصاص وبالسيف الضالع (وهو سيف وحيد الحد أعقف قليلاً يستعمله الفرسان). فما كان من الشيخ الطيب الا ان اقسم بالانتقام من احمد ومن « أسياده المسيحيين ، كما لقبنا » (هذا ما كتبه « ايتون » نفسه) .

لقد أضاف هذا التهديد الى هموم احمد هماً جديداً ، ولكن مخاوفه تبددت الى حد ما عند الظهيرة ، حين ارسل الشيخ يقول أنـه سوف يعود لينضم الى القافلة اذا مـا انتظروه . فعاد هو واعضاء قبيلته في منتصف فترة بعد الظهر .

ولما كان أحمد قرامانلي ضحية مخاوف لا تفارقه لحظة واحدة ، لا سيما حين كان يفكر في ساعة تلاحم جيشه مع جيوش أخيه ، فانه كان كلما قرُب من درنة زادت مخاوفـه وتضاعف ذعره . وفي ٢٨ آذار (مارس) ، تغلبت عليه مخاوفه تماماً . فقد أمسك بالخيول التي كـان يمتطيها ضباط « ايتون » ، وقدمها الى مشاته الذين فروا مـن المعسكر كلمح البصر ... وبدا « ايون » غير هيّاب ازاء تلك السلسلة الجديدة من الاحداث ، فاكتفى بقطع المؤن عن العصاة ، وأمر رجاله المسيحيين بالسير الى الامام . وما ان مضت ساعتان اثنتان ، حتى عـاد احمد

المتردد المتذبذب ، يقدم الاعتذارت ، ويدّعي انــه كان في نيته أن يهدىء انصاره . فاستمع « ايتون » ، كالح الوجــه ، الى أعذار الأمير الالعوبة وأمر باستئناف المسير ...

وما عتموا ان وصلوا الى قرية عربية محصنة ، وذلك بعد ان ساروا أكثر من اثني عشر ميلاً ، في ذلك اليوم .

ومما زاد في تعقيد الأمور ان بعض قوافل التموين لم تصل ، فأوفد احمد احد كبار ضباطه للبحث عنها . ولكن ذاك الضابط لم يرجع هو بدوره أيضاً ، فتوقفت القافلة كلها تنتظر . وفي مساء اليوم التــالي ، ٢٩ آذار (مارس) ، عاد المبعوث ومعه معظم العرب التائهين .

وفي الفترة التي كان يبحث فيها المبعوث عن قافلة التموين ، قــام « ايتون » بزيارة القلعة العربية حيث استُقبل بالترحاب . وقد دُهش العرب لكتفياته التي ظنوها مصنوعة من الذهب الخالص . ويقول «ايتون» في يومياته :

« ... واستغرب العرب كيف ان الله يدع أُناساً يدينون بديانة الشيطان يملكون أمثال تلك الاشياء الثمينة » .

وفي اليوم نفسه ، حاول « ايتون » الاستفادة من عطلته الاجبارية ، فأخذ يصرح أمام شعب طرابلس بآرائه المنمقة ، باللغة الفرنسية . لقـد حثهم عـلى ان يُولوا أحمد حاكمهم الشرعي الحقيقي ، ثقتهم ، وان يؤمنوا بالله الواحد الأحد الذي يعبده الاميركيون والمسلمون على حـــد سواء ... فباتباعهم تلك النصيحة ، سوف يضمنون « سلاماً سرمديـــاً وتجارة حرة ومنتشرة » — الامر الذي كان بالنسبة لرجل نيو إنغلندي ، إن لم يكن بالنسبة لرجل طرابلسي ، نعيماً في منتهى السعادة .

كان « ايتون » مُتلهفاً باستمرار لاقنــاع المسلمين بأن الاميركيين يختلفون عن المُلحدين الاوروبيين ، فعلّم ترجمانه ان يوضح لهم « ان ديانة الاميركيين تختلف عن جميع ديانات الدول الاخرى التي يرتدي

•

ابناؤها القبعات » — علماً بأن القبعات والعمامات هي العلامات المميّزة لكل من المسيحيين والعثمانيين على التوالي — ؛ كما علّمه بأن الاميركيين يفتحون صدورهم لجميع الديانات ويتقبلونها بنزاهة وتجرد كاملين. والحق يقال ، ان « ايتون » مضى يقول انه بالرغم من ان الله قد وعد الاميركيين بجنة منفردة فاز باستطاعتهم — في العالم الآخر — ان يعقدوا اجتماعات ، وان يزوروا :

« جنة محمد (صلى الله عليه وسلم) وجنة البابويين (اتباع المذهب الكاثوليكي)... ولكنهم ارتابوا وشكوا في قصتي . فقلت لهم ان لدي اثباتات وتأكيدات بأني استقبلت استقبالاً حسناً وعوملت معاملة طيبة من ذينك النبيين ، اذ ان العدد العديد من اصدقائي هم من المؤمنين بواحد أو آخر من هذين النبيين. فابتسموا ، ولعلهم سخروا ، لتلك الفكرة، ولكنهم اعترفوا بأنهم سيكونون في غاية السرور اذا ما شاهدوني في جنتهم ، على الرغم من انهم شكّوا فيما اذا كان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) سيسمح لي بالدخول الى هناك، حتى على سبيل الزيارة، ما لم أُدلي بالشهادة وأصبح مؤمناً صادقاً » .

•

ان عودة الحيوانات ناقلة المؤن وأصحابها رفعت من معنويات الاميركيين ولكن تفاؤلهم لم يدم طويلاً ، اذ حدث في اليوم التالي ، وذلك قبل ان يتقدم المسيحيون بضعة اميال من المعسكر ، ان تشاجر العرب ، بعضهم مع البعض الآخر ، وذلك بينما كانوا يجمعون امتعتهم . فقد تشاجر الشيخ الطيب مع الشيخ محمد بسبب الالف والخمسمائة دولار التي كان احمد قد قرر على ان تجري قسمتها بينهما بالتساوي ، مكافأة لهما على حسن خدماتهما . واذ ان الشيخ الطيب كان

قد أخفى جزءاً من النقود لديه ، أخذ الشيخ محمد يتهمه بالغش وعدم الوفاء وقلة الاستقامة ، كما اعتزم هو بدوره — ومعه اتباعه — عـدم متابعة الرحلة . ولم يطل الامر حتى انضم اليه بعض الزعماء والقادة الصغار ، حتى بدا وكان معظم المحاربين الذين كان يعتمد عليهم كل من «ايتون» وأحمد قد تبخروا في الصحراء .

وعبثاً حاول احمد ان يقوم بدور المصلح ... وأخيراً ، يئس وكفّ عـن المحاولة ليسرع باللحاق « بايتون » راجياً مساعدته . وهكذا سار المسيحيون ثلاثة أميال الى الوراء ونصبوا خيامهم عند بئر ماء . ثم انهم أوفدوا ترجمانهم مع أحمد واثني عشر خيالاً كيما يجربوا مصالحـة العرب المتخاصمين فيما بينهم .

والواقع انه اذا ما انسحب اولئك القبائليون ، الذين كانوا يمتّون الى القبائل المقيمة حول درنة بصلة ، من القافلة ، فان امكانية تأمين قوى وتعزيزات إضافية للحملة عـلى المدينة المذكورة سوف تكون أمراً أشبه بالمستحيل .

حتى اذا اصبحت الامور على تلك الحال ، بلغ اشمئزاز « ايتون » من العرب درجة لا حدود لها ... اسمعه يكتب في يومياته مشمئزاً :

« ابتداء من الاسكندرية وحتى هذا المكان ظللنا نعاني بصورة مستمرة من مشاحنات رجالنا العرب ومشاجراتهم ، ومن خلافاتهم وجدالاتهم ، ومن تأخيرهم الدائم ... ليس لدى اولئك الرجـال الذين رافقونا أي حس بالوطنية ، او الصدق ، أو الشرف ؛ وهم لا يتقيّدون بأيـة ارتباطات ما لم يكن وراءها كسب مالي ، ما خلا الأمـور والواجبات الدينية التي يُبدون نحوهـا حماساً كبيراً . ان الفقر قد جعل منهم لصوصاً ، والممارسة جعلت منهم بارعين في فن السرقة . فاذا ما غابت عين المراقبة عن شيء ما يرغبون فيه لحظة واحدة ، فانك لن تجد ذاك الشيء بعد تلك اللحظة بتاتاً . وأكثر ما يجتذب اهتمامهم : الاسلحة ،

والذخائر ، والمؤن ... ولكن عدداً كبيراً من رجالنا سُرقت لهم ثيابهم وحاجاتهم الأخرى ... »

وبينما كان احمد والترجمان يحاولان جاهدين مصالحة العرب المتشاجرين؛ بقي « ايتون » والمسيحيون في المعسكر ... لقد عادت الامطار الى الهطول ، وهبت ريح باردة من جهة البحر الابيض المتوسط . وكان التشاؤم ، في ذلك اليوم الاخير من آذار (مارس) ، أسود كالطقس تماماً . غير ان اول يوم من نيسان (ابريل) لم يأتِ بأي ضرب من التشجيع اطلاقاً ... واستمر المطر ينزل مدراراً ... ودخل الشيخ الطيب ، « أبو المشاكل » ، الى خيمة « ايتون » ليطلب المزيد من الجراية ، فلم ينل سوى توبيخاً وتأنيباً . فقد قال له القائد :

« لقد كنت دوماً على رأس كل حركة عصيان قامت منذ ان غادرنا الاسكندرية . وأنت المحرض الآن: تحرض القادة والزعماء . اترك خيمتي ! اخرج منها ! ولكن انتبه وخذ حذرك !! اذا ما قامت اية فتنة أو حركة عصيان جديدة في المعسكر ، في اثناء غياب الباشا ، فلسوف أقتلنّك شرّ قتلة وكأنك انت نفسك — لا احد سواك — المسؤول عنها » .

خرج الشيخ من الخيمة ، وهو يهدد بأن يبدأ بتحريض عصبته ، بيد انه ما لبث ان انسل مطأطأ الرأس مكسور الجناح ، بعد الظهر ، الى خيمة « ايتون » ، ملتمساً منه المغفرة ونسيان ما ظهر منه وصدر عنه ، وواعداً اياه بالاخلاص والاستقامة الدائمين ... لقد فعلت الكلمات القاسية العنيفة فعلها أكثر من التروي والتفاهم .

عاد احمد قرامانلي الى المعسكر في اليوم الثاني من شهر نيسان (ابريل)، وهو مبتلّ وملوث بالوحل ، ومعه الشيخ محمد وسواه من القادة الذين كانوا قد هربوا . لقد ابدى نشاطاً قليلاً ونجح في تحقيق مهمته ، هذه المرة فقط ، بطريقة ما من الطرق لم يدركها

« ايتون » . ومهما يكن من امر ، فقد اقنع احمد انصاره وحلفاءه بالعودة . وفي الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم ، دعا « ايتون » احمد وجميع الشيوخ الى خيمته وألقى فيهم كلمة حول السلم والاتحاد . وها نحن نتركه يقص علينا ما حدث :

« رحت احذرهم من المشاجرات السابقة ، واحضهم على الاتحاد والمثابرة على اعتبار انهما يؤلفان معاً الطريق الوحيد المؤدي الى النجاح الاكيد في المهمة الخطيرة التي نذروا أنفسهم لأجلها ، والتي قطعوا عهوداً على انفسهم بالاخلاص لها والتفاني في سبيل تحقيقها . ومن ثم ، أصدرت الاوامر باستئناف الزحف في صباح اليوم التالي ... كان لدينا الآن ما يتراوح بين الستمائة والسبعمائة رجل محارب ، باستثناء اتباع المعسكر والعائلات البدوية ، الذين كانوا يبلغون حوالى الالف ومئتي نسمة » .

كانت خيبة الأمل بانتظار « ويليام ايتون » الذي كان يتمنى — أو قل يتوقع ـ الاسراع . فعلى الرغم من ان القوافل باشرت سيرها في الساعة السادسة من صباح اليوم الثالث من شهر نيسان (ابريل) ، فانها لم تقطع الا مسافة عشرة اميال ذلك اليوم ، اذ لم يمض طويلُ وقت حتى شرع العرب ينصبون الخيام بجانب حوض ماء استعداداً للاستقرار هناك مدة من زمن ، كما اتفقوا على القيام برحلة برية طولها خمسة ايام الى واحة داخلية بحثاً عن مؤونة طازجة من البلح . فاعترض «ايتون»... لكن العرب اجابوا انهم يعانون نقصاً في الطعام — والحق ان الجميع كانوا يشكون من ذاك النقص المتزايد — ، وان مؤونتهم تكاد تنفد ، مصرين جميعاً على ألا يتقدموا خطوة واحدة قبل ان يتمونوا من جديد. وقد أكد لهم القائد الاميركي ان السفن ستؤمن لهم الطعام حتماً في بومبا اذا ما حثوا الخطى ، ولكنهم اجابوه ببرودة ان احداً لا يستطيع ان يضمن ذلك . كان الشك يكتنف قصة السفن من جميع جوانبها ، في حين ان تمور الواحة (في سيوه) كانت مضمونة اذا انتظروا قليلاً ...

وفي آخر الأمر ، اقنعهم « ايتون » بقبول حل وسط : وهو ان يرسلوا فريقاً منهم الى سيوه شريطة ان يلتحق بالجماعة في بومبا ومعه التمور . ووافق الباقون على السير في الغد .

وما ان حُلت تلك المشكلة — او كانت على الاقل في طريقها الى الحل — ، حتى خصص العرب اليوم الثالث من نيسان (ابريل) بأكمله للاحتفالات . فبعد الظهر ، خرج الجمع كله ليحتفل احتفالاً صخّاباً بزفاف زعيم كهل متقدم في السن على فتاة في الثالثة عشرة من العمر ... فانطلق الفرسان على خيولهم يدورون حول لمعسكر طربين فرحين، وهم يطلقون رصاص مسكيتاتهم * — كل ذلك اضاعة واستهلاكاً فارغاً للبارود ، الامر الذي ازعج القائد النافد الصبر .

تابع « الجيش الخليط » سيره في الايام الثلاثة التالية ، من غير تأخر يُذكر ... وفي السادس من نيسان (ابريل) ، خيم عند أسفل خندق ** في السلوم يبعد حوالى اربعة اميال عن شاطىء البحر (راجع الخارطة) . وكان الموقع مهجوراً، خرباً ، مقفراً ، ليس فيه إلا بئر ماء نتن واحد .

والواقع ان الخيول كانت قد امضت الاثنين والاربعين ساعة الماضية من غير ان تشرب نقطة ماء واحدة ؛ زد على ذلك، ان مَطرات الماء العائدة لعابري السبيل كانت على وشك ان تجف . وكان الطعام — ايضاً وايضاً — آخذاً في النقصان بسرعة... ان أي تغيير في وقعة الخبز والارز كان سيلقى ترحاباً اجماعياً . وقبل يومين ، كان احد الضباط قد اصطاد سنّوراً (أو هراً برياً) ، وعمد الى طهوه ... وتخبرنا اليوميات « ان مذاقه كان لذيذاً جداً » .

كانت الحاجة المتزايدة للغذاء تحتم بالضرورة الاسراع وحث الخطى .

---

* مفردها مسكيت ، وهي بندقية قديمة الطراز خاصة بجند المشاة .

** يبنى عادة حول موقع دفاعي .

وفي ذلك الحين ، قدّر « ايتون » ان بومبا ما زالت تبعد حوالى تسعين ميلاً ، بينما كانت مؤونته لا تكفي اكثر من اسبوع واحد آخر .

وخرج الجيش من الخنــدق في ٧ نيسان (ابريل) ، وعبر النجد الواسع . وفي اليوم التالي ، هبط الجيش احد الوديان حيث عثر اخيراً وبعد طول انتظار على ميـاه صالحة للشرب . ولقد وصل الجيش الى النبع عند حوالى الساعة التاسعة قبل الظهر... وفي حين كان القائد الاميركي « ايتون » يستطلع الطريق امامه ويستكشفها ، اصدر احمد قرامانلي امراً باقامة مخيم . فحنق « ايتون » للتأخر ولاضاعة القسم الافضل من ذاك النهار سدى ... فاحتج احمد، وتذرع بأن رجاله بحاجة ماسة الى الراحة. والحق انه كان ينوي ان يظل مخيماً هناك بانتظار رجوع مبعوث من بومبا يحمل اليه خبر وصول السفن . ومرة اخرى ، استعمل « ايتون » سياسة الحزم .

واليك ما كتبه في هذا الصدد :

« ولقد اخبرته انهم بعملهم هذا قد اختاروا الجوع على التعب، وأمرت بقطع الجراية عنهم ، حتى يتضوروا جوعاً » ...

فكان رد فعل احمد باشا قرامانلي ان امر انصاره بجمع امتعتهم استعداداً للعودة الى مصر . وعلاوة على ذلك ، فقد هددوا بالاستيلاء على جميع ما تبقى في حوزة القائد ومساعديه من مؤن واطعمة .

لقد اصبح الوضع موئساً .. لفظ « ايتون » امراً بـ « الى السلاح » ، وشكّل المسيحيون خط دفاع حربي امام خيمة المؤن ، في حين احتشد العرب في مواجهتهم . ومضت ساعة من الزمن ، وكل فريق ينتظر الآخر ان يقوم بالحركة العدائية الاولى . وأخيراً ، اقنع احمد العرب بالانصراف، فارتاح كل امرىء واسترخى .. وهكذا بدا ان الكارثة قد ماتت .

ولكن – لسوء حظ « ايتون » – فانه عندما امر جنوده بالاسراع الى اسلحتهم ، حسب العرب المتيقظون ان جنود القائد هم على وشك

اطلاق النار . فذعروا بل لقد جُنّوا من الذعر ، وامتطوا خيولهم ، واستعدوا اما للهرب او للدفاع . اما احمد الذي شاركهم خوفهم ، فقد انضم اليهم . ثم اندفع الخيالون بسرعة فائقة ، وقدم مئتان منهم تقريباً يحاولون على المسيحيين الذين تسمروا في امكنتهم ببسالة . وقبل ان يصل العرب الى خط الدفاع ، صوّبوا على الضباط ، ولكن واحداً من رجال احمد منعهم ، وردعهم عن ذلك ، قبل ان يطلقوا رصاصة واحدة — دالاً بعمله هذا عن وعي وتفهم وادراك اكثر من قائده .

وورد في اليوميات الايطالية ما يلي :

« لقد وقف بجانبي السيد « اوبانون » ، والسيد « بيلك » ، والشاب الصغير « جورج فاركوهار » صامدين ثابتين . وحافظ سليم آغا (قائد المدفعيين) ، وملازموه الاولون ، والضابطان اليونانيان على مراكزهم دون ان يتزحزحوا . اما الباقون ، فقد ارتعشوا ، وتخلوا عنا في الحقيقة ! فدنوت من الباشا وحذرته من تشجيع اي عمل يائس او تأييده . وعلى التو صوّبت الى صدري مجموعة من المسكيتات .. فذهل الباشا .. وحجب صوتي صخب وجلبة احدث ضجة عالية كان مصدرها رجال كثيرون .. فلوّحت بيدي ، طلباً للهدوء والانصات . وفي تلك اللحظة المصيريـة الحاسمة ، دخل بيننا بعض ضباط الباشا وزعماء العرب ممتطين خيولهم ، وسيوفهم مشهورة ، ففرقوا الثوار العصاة . ثم اني وبخت الباشا ولمته على تسرعه وطيشه ، او بالحري على ضعفه . ولقد سأله امين امواله اذا ما كان بكامل قواه العقلية .. فضربه الباشا بسيفه المجرد . وما لبث الشجار ان استعاد انفاسه من جديد عندما امسكت الباشا من ذراعه ، وقدته بعيداً عن الحشد ، وسألته اذا ما كان يعرف مصالحه الخاصـة واصدقائه الخلّص . فراق الآن ؛ ودعاني صديقه وحاميه ؛ وأضاف ان الناس يبغضونه بسرعة .. وتبعني الى خيمتي إثر اصدار امره للعرب بالتفرّق » .

وعندما تعهد احمد باستئناف السير عند الصباح الباكر ، اصدر « ايتون » اوامره بتوزيع الأرز . وقبل ان يبلغ النهار آخره ، كان الباشا الطرابلسي يتودد الى القائد الاميركي متزلفاً متملقاً ، منادياً اياه باسم « الأميركي المقدام الشجاع » ، كما كان يدعوه بصديقه المفضّل. واذا ما يئس « ايتون » ، فان عزمه على الوصول سريعاً الى درنة لم يتضاءل .

وقد كتب في يومياته يقول :

« كنا نجد انه من المستحيل ان ننفخ في اولئك المتعصبين المتوحشين روح الثقة فينا ، فنحن لم نكسب ثقتهم هذه . كما انه كان مستحيلاً ايضاً ان نقنعهم بأن كوننا مسيحيين لا يعني اننا اعداء المسلمين . لقد كانت مهمتنا صعبة حقاً !! »

وعلى الرغم من ادعاءات احمد بالصداقة والمودة ، فقد ظل ساخطاً ناقماً مستاءاً . ففي اليوميات نسمع ما يلي :

« لقد ادخل بعضهم في روعه اننا لا نستعمله الا في سبيل احلال السلام بيننا وبين شقيقه وحسب ، وان النمط او الاسلوب الذي سننهجه للتوصل الى مبتغانا امرٌ لا نكترث به » .

ومن هنا ، نستدل على ان الباشا احمد قرامانلي كان يتمتع بميزة المتنبىء الراجم بالغيب .

وصل الرجال بعد مسيرة اليوم التالي الى مرعى خصيب فيه حوض ماء . وتتحدث اليوميات ، في هذا الصدد ، بصورة مقتضبة اذ تقول :

« وجدنا في ذاك الحوض جثتين هامدتين ، ويمكن ان يكون العرب قد قتلا هذين الرجلين ... ومهما يكن من امر ، فقد كنا مضطرين لاستعمال هذه المياه » .

ومع ان الخيل قد توفر لديها علف جيد ، فان اطعمة الرجال قد تناقصت بسرعة. ففي ١٠ نيسان (ابريل) خفضت الجراية الى النصف ،

اعني نصف جراية من الأرز والماء .

وجابه الجيش في تلك الليلة اسوأ خطر من اخطار الرحلة . فلقد جاء احد الضباط يحمل خبراً للقائد الاميركي للحملة خلاصته ان المدفعيين المسيحيين لن يرضوا بالجراية المخفضة الى نصف الكمية من الأرز ، وهم يهددون بالثورة . والحق ان « ايتون » لم يثق بأحد ، اللهم سوى « اوبانون » ، وقد ارسل يقول ان الموت الآني ينتظر الثائر الاول . بيد انه لم يفصح لنا عن كيفية مواجهته ثواراً متساوين معه في الرتبة . ولعله كان يعتقد اعتقاداً راسخاً ن « اوبانون » ورماته البحريين السبعة قادرون على مواجهة الطوارىء بكفاءة ورصانة .

ولكن الحظ ابتسم له — هذه المرة فقط ... فبعد مضي نصف ساعة من سماعه نبأ الثورة المتوقعة ، وفد مبعوث الى خيمته يخبره ان السفن الاميركية تنتظرهم في بومبا . « فانقلب الجو رأساً على عقب » ، مثلما يعبّر عن تلك اللحظات في يومياته التي يقول فيها :

« وفي لحظة ، تغير وجه كل شيء ووجه كل امرىء : من تجهم قانط الى سرور متحفز ... ولم نعد نسمع اي حرف عن الثورة . لقد عاد العرب الى ولائهم لنا وثقتهم بنا . ووعدني الباشا بأن يغذّ الخطى في الجزء المتبقي من الرحلة حتى نصل الى بومبا » .

ولقد اصيب احمد بنوبة تشنج عضلي لا ارادي وغير سوي صحبتها نوبة اخرى من التقيوء ، إما لدهشه العظيم للأنباء المفرحة ، او لضعفه المفرط بسبب الجوع . واستمرت النوبتان حتى اليوم التالي ، واجبرتا الموكب على اقامة المخيم بعد عبور مسافة خمسة اميال فقط .

ثم ان جنود « ايتون » الجائعين قطعوا ازرار ثيابهم وبادلوها ببعض التمور من نساء العرب البدويات . وفي ١٢ نيسان (ابريل) ، استعاد احمد صحته ونشاطه ، فتابع الجيش زحفه مسافة خمسة وعشرين ميلاً الى الامام ، ولكن مخيم تلك الليلة لم يوفر لهم أي ماء او وقود . وتناول

الرجال آخر حبات الأرز نيئة لعدم تمكنهم من اشعال النار . وقد بلغ التعب والجوع والانهاك من بعض رجال العرب القبائليين مبلغاً عظيماً الى درجـــة انهم شردوا في غير اتساق او نظام على بعد خمسة اميال وراء الموكب الرئيسي .

وفي ١٣ نيسان (ابريل) استبد الجوع بالرجال حتّى ان احمد امر بذبح احد الجمال وتوزيع لحمه على الجميع . ثم قايض الباشا الطرابلسي بعض العرب المجاورين جملاً آخر من جماله مقابـــل بعض الخراف . واثر النشاط الذي دبّ في اجسام الرجال لأكلهم اللحم الطازج ، عبروا مسافة خمسة عشر ميلاً في الرابع عشر من ذلك الشهر ، وخيموا في واد كثير الاعشاب الضارة. فراح كل واحد منهم ينتقل من مكان الى آخر ، في ذاك الحقل ، بحثاً عن النباتات والجذور التي التهموها بنهم . وثمة ضرب من الشُّمرة البرية والحماض كانا افضل قوت مغذ لهم .

وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم الخامس عشر من شهر نيسان (ابريل) ، كان الجيش قد عبر الصحراء نحو شواطىء خليج بومبا . والذي كان يبدو للعين المجردة هو انه لم يكن في استقبالهم الا مياه البحر الابيض المتوسط الزرقاء . لم تلمح عيونهم ايما شراع . زد على ذلك ، انهم لم يعثروا على أي نبع او بئر مملوء بمياه المطر ليطفئوا لهيب العطش الذي كان يلسع حلوقهم . ولما لم يكن لديهم افضل من الشُّمرة البرية والحمّاض يحشون بهما امعائهم ، فقد قطّب الجيش الجائع جبينه مظهراً غضبه ازاء « ايتون » .

ان خيبة الأمل هذه كانت اشبـــه بالصاعقة التي نزلت عليهم لتحطمهم ، لا سيما بعد ان تأكد لهم ان الخرافات التي حيكت حول السفن الاميركية ، التي لن تأتي على الاطلاق ، ما كانت الا ضرباً من الخيال .

ولم يجرؤ العرب على تبديد طاقاتهم في اعمـــال المشاجرة ، فلزموا

خيماتهم فاقدي الامل في تلك الليلة الرهيبة . وكان من المقرر ، في صباح اليوم التالي، انهم سوف يرجعون الى الوراء حتى السهل ... واذا ما ارادوا النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ان يساعدهم ، فسوف يحصلون على قوتهم من بدو الصحراء . لقـــد ركزوا انظارهم على « سيوه » وهم ينتظرون عودة الجماعة ومعها التمور ، على احر من الجمر... لن يصدقوا مسيحياً بعد اليوم .

ان « ويليام ايتون » نفسه انما كان محتاراً مرتبكاً في امره ، ولكنه لم يكن ، مـــع ذلك ، يئساً . فهو كان يعتقد ان « هل » لا بد وان يكون في مكان ما قرب الشاطىء ، وانه عاد وابحر في عرض البحر بعد ان فقد الأمل في العثور عليهم ، لا سيما وانه من المحتمل ان يكون قد ابحر الى مكان يأمن فيه شر الرياح المخادعة . بل ولعله يكون في مكان قريـــب بحيث يرى منه اشارات النيران اذا ما اطلقت من مخيم « ايتون » في الليل .

واليك ما دوّنه القائد بهذا الصدد :

« توجهت ومعي رجالي المسيحيين ، واضرمنا النار من على جبل مرتفع طوال الليل . وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ، صاح امين اموال الباشا احمد قرامانلي بأعلى صوته بأن شراعاً ما يلوح في الافق ... وأخذ الشراع يدنو منا... وسرعان ما ادرك المراقبون ان السفينة «ارغوس» تتجه نحونا . ان اللغـــة لتعجز عن وصف – بل ورسم الغبطة الطاغية التي عرفناها والنشوة الكبرى التي ارقصت قلوبنا ، بعد ان دبّت في صدر كل منا الحياة من جديد » .

ويتابـع القائد وصفه فيقول :

« صعدت الى السفينة في تمام الساعة الثانية عشرة . اما الموكب ، فقد تحرك ، في غضون ذلك ، قرابة الخمسة او الستة اميـــال حول الخليج بحثاً عن حوض ماء .. وفي الساعـــة السادسة من بعد الظهر ،

ارسلنا لهم المؤن . ولزمت السفينة طوال الليل » .

ووصل السَّلُوب * « هورنيت » في ١٧ نيسان (ابريل) ، وهو محمَّل بالبضائع المختلفة . وقاد « ايتون » الموكب حول الخليج، مرةً ثانية ، اكثر من عشرين ميلاً بحثاً عن مركز افضل في الميناء ، وشرع ينقل المؤن الضرورية التي تسد حاجة جيشه في الجزء المتبقي من الرحلة الى درنة . وارتاح الجيش الجائع مدة ستة ايام ، وكان على استعداد لاستئناف رحلته في ٢٣ نيسان (ابريل) . ثم ابحرت « ارغوس » ومعها « هورنيت » لملاقاة الجيش عند درنة . وبعد مسيرة يوم كامل تحت الامطار وعبر مناطق صخرية وتضاريس جبلية ، وصل الجيش الى طرف حقول محروثة وجبال محرّجة .. والحق ان تلك الاحراج كانت في الواقع اول الاخشاب التي وقعت عليها انظارهم طوال رحلة السمائة ميل من مصر .

وفي ليلة الرابع والعشرين من نيسان (ابريل) خيّم الجيش في واد اخضر بجانب نُهير رقراق موقّع النغمات .. بقي امامهم خمس ساعات ويصلون الى درنة .

●

لقد ارتفعت معنويات القائد . ان الهدف الرئيسي الاول لسنين عديدة من التخطيط ووضع المشاريع كان ينتصب امامه مباشرة .. وعلى العموم، فانه كان واثقاً من قدرته على الاستيلاء على المدينة ، ومن قدرته على الزحف على بنغازي ايضاً ، ومن ثم على طرابس نفسها ايضاً وأيضاً .

اما وجهة نظر احمد ، فكانت تختلف اختلافاً شاسعاً . فهو لم يكن ليود ان يشن حرباً في الدرجة الاولى . انه لم يورّط نفسه مع المغامر

---

* السلوب مركب شراعي وحيد الصاري .

الاميركي الا وهو يمنّي النفس بالانتصار السهل ، على اهون سبيل .
ولقد اعتزم عدة مرات على ان يعود من حيث اتى . وها ان رسولاً يأتي الآن ليخبرهم ان والي درنة سوف يدافع عن المدينة حتى آخر رجل .. ان حرباً من ذلك النوع لم تكن لتنال اعجاب احمد باشا قرامانلي، فطوال ليلة ٢٤ نيسان (ابريل) ، تباحث احمد مع معاونيه الكبار من غير ان يجربوا الاستفادة من نصيحة « ايتون » .

وعندما اصدر القائد امر استئناف السير في صباح اليوم التالي ، ثار العرب وهاجوا . وما كان من الشيخ الطيب والشيخ محمد — ونعرف كيف ان كليهما ضايق « ايتون » في رحلة الصحراء — الا ان اتجها شرقاً . اما العرب الباقون ، فقد رفضوا مغادرة خيامهم ، فجلسوا بكل بساطة ، ينتظرون ما قد يفعله القائد .

وبعد ان بدّد الزعماء ساعات ما قبل الظهيرة في المجادلة والمساومة ، قرروا اخيراً متابعة الرحلة ، لكن ثمن اخلاصهم كان الوعد بدفع مبلغ الفي دولار توزع عليهم حصصاً .

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر ٢٥ نيسان (ابريل) ، وصل « ايتون » وجماعته غير المنظمة — اخيراً — الى مكان مطل على درنة ، وخيموا على مرتفع يشرف على المدينة .

كان ثلث المدينة تقريباً محصناً ، مع فتحات للرمي عديدة ، وكل منها عبارة عن فرجة في جدار بعض البيوت تطلق منها نيران الاسلحة الصغيرة ، مع بعض المتاريس المرتجلة التي يبلغ ارتفاع واحدها ارتفاع الصدر ، ومدفعية بحرية تتألف من ثمانية مدافع يطلق كل منها قذائف زنة واحدتها تسعة ارطال . وكان ثمة قذّاف (مدفع قذّاف طراز عشرة انشات) على سطيحة قصر الوالي . ولقد علم « ايتون » ان في مقدور الوالي ان يعتمد على نحو ثمانمائة رجل لحمايته . وبالاضافة الى ذلك، فقد علم ايضاً ان جيشاً ارسله يوسف قرامانلي من طرابلس هو في

طريقه الى درنة الآن .

ثم ان الشيوخ الذين امتطوا خيولهم للحاق بأحمد وزمرته اخبروا « ايتون » ان هناك العديد من المنشقين عن سياسة العهد (وهم يتمركزون في الثلثين غير المحصنين من المدينة) والذين سوف لن يترددوا لحظة واحدة في شن هجوم مفاجىء على الوالي ، بكل سرور ، اذا ما اشتموا رائحة النصر ، ولاح لهم ان املهم بالنجاح كبير .

ولقد تعهد بعض الشيوخ العرب بالولاء لأحمـــد والاخلاص له ، وعادوا الى المدينة لتحريك انصار المعارضة المناوئة للحكم السائد هناك .

●

بدأ « ايتون » يستعد للمعركة . فكان اول مـــا فعله في يوم ٢٦ نيسان (ابريل) ان بعث يطلب من الوالي « مصطفى بك » ان يستسلم ويتخلى عن المدينة بصورة رسمية .

واستهل القائد الاميركي خطابه بقوله :

« لست ارمي الى احتلال اراضيكم . ان الباشا الشرعي لبلادكم يرافقني ها هنا . دعونا نمر عبر مدينتكم ، وافسحوا لنا مجال التزود بالمؤن التي سنحتاج اليها ، وسوف تتلقون تعويضاً عـــادلاً . لا تدعوا الاختلاف الديني يحرضنا على سفك دماء رجال ابرياء يفكرون قليلاً ولا يعلمون شيئاً .. » .

وكان مصطفى بك رجلاً شجاعاً مقداماً فاحتقر ادعاءات « ايتون » وتهديداته . وقد اجاب على رسالة ذاك الاخير بصرامة ، اذ بعث يقول :

« رأسي او رأسك ! »

وكان بالامكان ، بعد الظهر ، رؤية السفينة « نوتيلوس » ، وفي ٢٧ نيسان (ابريل) ، وقفت السفينتان « ارغوس » و « هورنيت » امام الميناء . لقد حان « اوان الشد » .. فأمر « ايتون » جيشه بالهجوم

على المدينـــة ، بينما تمركزت « نوتيلوس » و « هورنيت » في مواجهة المدفعية . وقد ارسل الملازم اول « هل » — قائد السفينة « ارغوس » — زورقاً يحمل مدفعي ميدان الى اسفل جُرف كان يتمركز عنده مدفعيو « ايتون » . فأطلق المدفعيون طلقة واحدة ، ولكن وقتاً طويلاً أفلت من ايديهم حتى ان « ايتون » امرهم بترك مدفع الميدان الثاني في الزورق ، والمباشرة بالهجوم على الفور .

وهكذا ، احتشدت السفن الاميركية والتحمت مع المدفعية الطرابلسية . وقاد « هل » سفينته « ارغوس » حتى دخل مجال الجزء المحصّن من المدينة ، وصب نيرانه على البيوت المزودة بفتحات للرمي . وقسّم « ايتون » قواته الى ثلاثة اقسام ، وشن هجوماً مثلثاً من جهات مختلفة ثلاث . فقاد بنفسه فريقاً على الجناح الايمن الاقرب الى البحر . اما الملازم اول « اوبانون » فقد شن هجومه من الجهة الجنوبية الشرقية مع رماتـــه البحريين ، ومدفعييه الاربعة والعشرين ، ومع الستة والعشرين يونانياً ، وبعض المشاة العرب ، وانقضّوا على المتاريس المرتجلة . واحتشدت قوات احمد باشا قرامانلي حول رأس واد صغير وضيق وسهـــل الانحدار ، وكان ذاك الوهد يخترق المدينة ، وشنت هجومها من الجهة الجنوبيـــة الغربية حيث توقع الشيوخ ان يتلقوا اكبر معونة من القوى الوطنية . وقد تسلل بعض خيالة احمد قرامانلي على هاتيك التلال الخلفية ، كيما يمنعوا اي انسحاب او تقهقر من المدينة .

واسكتت السفن الاميركية مدفعية الساحل الطرابلسيـــة عند حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، بيد ان الطرابلسيين لم يتخلوا عن ذاك الموقع ، علماً بأن معظم الجنود المرمركزين هناك قد انضموا الى القوى المعادية لجيش « ايتون » ... وتوقف « اوبانون » في قلب الوسط . وكان جنود احمد قد احتلوا قلعة قديمة في طرف المدينة ، ولكن ذاك القائد الحذر الحكيم ظل في منأى عن المخاطر ، ولم يفلح جنده في دورهم كجند الصدام

(او المصادمة) ... وشعر « ايتون » ان الضغط علي جناحه الايمن آخذ في الازدياد . وفي غمرة الدهشة والمفاجأة ، اطلق مدفعيوه ضاربة المنجنيق بعيداً فانفصلت عن مدفع الميدان ، وتركت الجيش الاميركي خِلْواً من قوة النار المدفعية التي كان في أمسّ الحاجة اليها . وكانت المعركة متأرجحة ، عندما عزم « ايتون » على شن هجوم مفاجىء يائس ، كمحاولة أخيرة لآخر سهم في جعبته .

ثم كتب بعد يومين الى القائد « بارون » يقول :

« اندفعنا نتقدم الى الأمام ضد جماعة من الوحوش البدائيين * كانوا يفوقوننا عدداً بعشرة أضعاف أو يزيد . لقد فروا من مخابئهم وغادروا مكامنهم ، على نحوٍ غير منظم ، وهم يطلقون النيران من عـلى كل شجرة نخيل وجدار داخلي مُرتدّين إلى الوراء . وفي تلك اللحظة بالذات أُصِبْتُ في مِعْصمي الأيسر ، الأمر الذي حرمني من استعمال يدي ، وبخاصة من إستعمال بندقيّتي » .

واستلّ « ايتون » سيفه ، إثر انجراحه على النحو الذي وصفه لنا ، وتابع تقدّمه . أما « اوبانون » ورماته البحريون ، وضابط الصف «جورج مان » ، الذين كانوا قد حلّوا جميعهم محل ضابط الصف « بيك » في بومبا ، فانهم قادوا حملة على رأس من تبقّى من المشاة المسيحيين والعرب .

واخترق الاميركيون وابـلاً من رصاصات المسكيتات المُنطلقة من خلف جدران البيوت ، حتى وصلوا الى مدفعية الساحل ، وتغلّبوا على من بقي من حُماتها ، ورفعوا العلم الاميركي عـلى الجدران . ثم انهم استفادوا من المدافع الطرابلسية العائدة لمدفعية الساحل ، ووجّهوها صوبَ الطرابلسيين الهاربين ، بينما صبّت السفن الاميركية نيراناً مُدمّرة عـلى المنازل التي كانت لمّا تزل تؤوي « مُتَصَيِّدي الاعداء » ، أعني المناضلين

* كما ورد في النص الأصلي Savages .

الطرابلسيين . وعند الساعة الرابعة تماماً ، احتلّ الاميركيون المدينة .

هذا ، ولقد تمكن أحمد من احتلال قصر الوالي إثر فرار مصطفى بك والتجائه الى مسجدٍ ما . ثم ان الوالي الهارب غادر المسجد فيما بعد ، فكتب « ايتون » انه قد فزع :

« إلى حرمٍ هو أقدس مقدسٍ عند الاتراك العثمانيين ، وهو لا يزال ملتجئاً هنالك ، على أننا سنجد الطريقة المناسبة لاخراجه وسحبه . وبما ان هذا الوالي هو الرجل الثالث ، من حيث الرتبة ، في هذه المملكة ، فربما استطعنا ان نستعمله في عمليات مبادلة الأسرى كبديلٍ عن « باينبريدج » الربّان ... »

لقد ابتسم الحظّ للاميركيين عندما استولوا على المدينة بسرعة ، لا سيما وان قوات الباشا الطرابلسي يوسف قرامانلي كانت لا تبعد عن المدينة إلا مسيرة يومين . وفي اعتقاد « ايتون » ، ان النصر الأميركي سوف يقضي على آمال جند يوسف قرامانلي ويردّهم الى طرابلس .

كانت الخسائر الأميركية فادحة نسبياً ، وخاصة اذا ما أخذنا قلة عدد الرجال المساهمين بعين الاعتبار . ويقول « ايتون » في تقريره الرسمي :

« من بين المسيحيين القلال الذين اشتركوا في حرب الساحل ، خسرت أربعة عشر رجلاً بين قتيلٍ وجريح ، بينهم ثلاثة من الرماة البحريين ، مات احدهم والآخر ينازع النزاع الأخير . أما الباقون فمعظمهم من اليونانيين الذين عزّزوا مجدهم القديم وحافظوا على ماضيهم البطوليّ الحافل ، في تلك الحملة الصغيرة » .

أما فيما يتعلق بشجاعة رجاله الذين كانوا تحت امرته ، فكان قائد الحملة سخياً في تقديرها وتسجيلها . فقد أطرى واثنى في تقريره إلى القائد « بارون » (من غير حدّ ومن دون قيد) ، على كل من « اوبانون » ، و « مان » ، والشاب الانكليزي الصغير « جورج فاركوهار » . وكانت أعلى مكافأة يمكن ان يمنحها للشاب « فاركوهار » هي وظيفة في

اسطول الولايات المتحدة الاميركية ، فأوصى به في التقرير الذي بعث به الى « بارون » كمرشّح له أهليته لرتبة ملازم أول .

عندما أرسل « ايتون » تقريره الى « بارون » في ٢٩ نيسان (ابريل) ، كانت درنة قد سقطت في أيدي الاميركيين ... وكان احتــلال سائر طرابلس يبدو مؤكداً اذا ما توفّر الدعم الكافي من الاسطول . كان « ايتون » منشرح الصدر ، عالي المعنويات ... فالنجاح يلوح امام ناظريه وكأنه أمر مرتقب . ولم يفتأ يفكّر في نشوة انتصاره ذاك اليوم الذي برهن فيه عن جدارة مخططاته ومشروعاته التي كان يعترض سبيل تنفيذها الاغبياء المغفّلون ، فكانت لذته عظيمة ، في اثناء لحظات التفكير هذه ، وكأنها طبق طعام شهيّ ، حلو المذاق ، يتلذّذ في التهامه . لقد ثأر وانتقم لجميع سنوات العار الملأى بالمساومات التافهة مع رجــال المصارف والوسطاء في الجزائر ، وفي تونس ، وفي طرابلس . ليس هذا فحسب، بل انه هو ، « ويليام ايتون » ، الجنرال القائد للحملة ، صاحب الفضل في تطهير الشخصية الاميركية في شمالي افريقيا . لقد استشعر « ايتون » ، وللحظة خاطفة ، نشوة البطل الفاتح وجذله وابتهاجه في قضية عادلة .